جمهورية مصر العربية **وزارة الأوقاف**	**٣من ذي الحجة ١٤٣٨هـ** **٢٥من أغسطس ٢٠١٧م**

(١)

الدروس المستفادة من خطبة حجة الوداع

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا}، وأَشهدُ أنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ ، وبعد:

فكلما لاحَ في الأفق هلالُ شهر ذي الحِجَّة تجلت في الأذهانِ شعائر الحج ، ومناسكه ، الركن الخامس من أركان الإسلام ، وتداعت إلى الذاكرة تلك الخطبة التاريخية المعروفة بخطبة حجة الوداع .

ففي العام العاشر الهجري قصد النبي (صلى الله عليه وسلم) بيت الله الحرام ؛ لأداء مناسك الحج ومعه جمع غفير من أصحابه (رضي الله عنهم) ، وقد عُرفت هذه الحجة بحجة الوداع ؛ لأنه (صلى الله عليه وسلم) ودّع الناس فيها ولم يحج بعدها.

وفي هذه الحجة خطب النبي (صلى الله عليه وسلم) خطبته المشهورة بخطبة الوداع ، والتي تمثل في بلاغتها وفصاحتها وإيجازها قيمة إيمانية وتشريعية وإنسانية عظيمة وراقية ، وتُعد أول إعلان عالمي لحقوق الإنسان ، ومنهاجًا قويمًا للبشرية ، وهي من جوامع الكلم التي أُوتيها نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، أرسى فيها كثيرًا من قواعد الإسلام ومبادئه ، وعظّم فيها الحرمات .

ويتجلى لنا مشهد خطبة الوداع في صعيدِ عرفات ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقف عند الصخرات من جبل عرفة ، في أعظم تجمع بشري في ذلك الوقت ، في لقاءٍ مشهودٍ بين أمَّةٍ ونبيها ، مؤمنين به ، مصدقين برسالته ، مطيعين لأمره ، بدأت

الكلماتُ تتلألأ من فَمِ النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) وهو يَسْتَشْعِرُ مع كل حرف منها دنوَّ أجلِه بعد هذه المناسك ، وكان يقول (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه الكرام : (خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا) ، وَطَفِقَ يُوَدِّعُ النَّاسَ ، فَقَالُوا: هَذِهِ حَجَّةُ الْوَدَاعِ .

لقد اشتملت تلك الخطبة على دروس وعبر عظيمة تُعدّ نبراسًا للبشرية كلها ، وتأسيسًا للأمن والسلم المجتمعي والعالمي ، **من هذه الدروس** :

* **ترسيخ مبدأ المساواة والكرامة الإنسانية** بين الناس جميعًا كحق إنساني يحفظ كرامة الفرد في الأمة ، فقد قال (صلى الله عليه وسلم) في خطبته : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ...) ، فقد جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) معيار التفاضل هو التقوى والعمل الصالح ، امتثالًا لقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}، فالبشرية كلها سواسية دون تمييز طبقي ، أو تعصب قبلي ، فالناس جميعًا ينتمون لأصل واحد ، وأب واحد ، هو آدم (عليه السلام) ، وهو ما رسخه النبي (صلى الله عليه وسلم) واقعًا عمليًّا حين قال: (سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ) ، وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول : (أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا ، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا) يَعْنِي سيدنا بلالًا (رضي الله عنه) .

*حرمة الدماء والأموال والأعراض ، وهذا ما أكده النبي (صلى الله عليه وسلم)

في خطبته ، فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ ، أَوْ بِزِمَامِهِ- قَالَ: (أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ) ، فقد دلت هذه الكلمات البليغة ، بهذا الأسلوب النبوي البديع على عِظم حرمة الدماء ، والأموال ، والأعراض وعصمتِها ، وأنه لا يحل الاعتداءُ عليها بأيِّ نوع من أنواع الاعتداء .

فقد لفت النبي (صلى الله عليه وسلم) انتباه أصحابه (رضي الله عنهم) لهذا اليوم العظيم ، وذكَّرهم بحرمته ، وحرمة الشهر ، وحرمة البلد تقريرًا لما ثبت في نفوسهم من تعظيميها ؛ ليبني عليه ما أراد تقريره وتأكيده من عظم حرمة الدماء والأموال والأعراض ، فالإسلام يدعو إلى الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، ويريد للناس جميعًا أن يحيوا حياة مستقرة ، ولا يتحقق لهم ذلك إلا بحقن الدماء والأعراض والأموال .

ومن المعلوم أن حفظ الدماء والأعراض والأموال لا تمييز فيه في الإسلام بين مسلم وغيره ؛ لأن الشريعة كفلت ذلك لكل إنسان بغض النظر عن دينه ، أو جنسه ، أو لونه ، قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، بل جعل الله (عز وجل) قتل نفسٍ واحدة بغير حق كأنه قتلٌ للبشرية كلها ،

قال تعالى: { ... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}، فلاَ يحلُّ لإنسان أَنْ يعتدِيَ علَى أخيهِ بأي نوع من أنواع الاعتداء ، أو أن يتعرضَ لهُ بأي لون من ألوان الإيذاءِ ، لقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ) ، فأمر الدماء في الإسلام عظيم، لدرجة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ).

وقد حذَّر النبي (صلى الله عليه وسلم) تحذيرًا آخر في هذه الخطبة يتعلق بالدماء وحرمتها ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : (لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا ، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) ، وهذا تحذير نبوي شديد ، للدلالة على خطورة استحلال الدماء بغير حق.

وكما حرَّم الإسلام الاعتداء على الأنفس حرم كذلك الاعتداء على الأموال بأي صورة من صور الاعتداء غصبًا ، أو سرقة ، أو احتيالًا ، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ}، وقال تعالى:{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، وحفاظًا على الأموال بوجه عام حرمت الشريعة الإسلامية السرقة، والغصب ، والاعتداء على المال العام أو الخاص ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ) .

وكذلك حرم الإسلام الاعتداء على الأعراض ، أو النيل منها بأي وجه من الوجوه فأولاها عنايةً خاصةً ، وأوجب صيانتَها والمحافظةَ عليها ، لا فرق في ذلك بين مسلم وغيره ، فقال تعالى:{وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}، كما حرم

النبي (صلى الله عليه وسلم) قذف المحصنات وعدّه من الكبائر، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ)، قيل: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: (الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِناتِ الْغافِلاتِ).

* **الوصية بالنساء ، والمحافظة على حقوقهن** ، فديننا العظيم هو أول من أعطى المرأة حقوقها ، وجعل لها النبي (صلى الله عليه وسلم) نصيبًا كبيرًا في خطبته ؛ لما لها من حقوق آدمية وكرامة إنسانية ، فالنساء شقائق الرجال ، في ضوء الرحمة والمودة والسكينة والحقوق المتبادلة ، وهذا ما أكده النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله: (وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقٌّ) ، فالمرأة في الإسلام لها حقوقها وعليها واجباتها ، كما للرجل حقوقه وعليه واجباته سواء بسواء ، ولقد لخص القرآن الكريم دستور العلاقة بين الزوجين أجمل تلخيص حين قال:{وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}.

فهذا دليل قاطع على أن الإسلام لم يظلم المرأة أو ينتقص من قدرها ، بل على العكس من ذلك تمامًا ، فقد كرّم الإسلام المرأة أمًا ، وبنتًا ، وزوجة ، وأختًا ، فعندما سُئل النبي (صلى الله عليه وسلم) : مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أَبُوكَ)، وقال: (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا يوم القيامة مِنْ النَّارِ) ، وفي رواية : (مَنْ عَالَ ابْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ بَنَاتٍ ، أَوْ أُخْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ أَخَوَاتٍ ، حَتَّى يَبِنَّ أَوْ يَمُوتَ عَنْهُنَّ ، كُنْتُ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ ، وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى).

فالرجال آباء أو أبناء أو إخوة أو أزواج مطالبون بحسن المعاشرة للنساء عمومًا ، فلا يحل لهم ظلمهنّ بوجه من الوجوه حتى ولو كان يسيرًا ، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

من الدروس المستفادة من خطبة حجة الوداع: **الحث على وحدة الأمة والنهي عن الفرقة والعصبية** ، فقد حذر رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فِي خطبته من الفرقةُ والتنافرُ ، والتنازعُ والتدابرُ ، فقالَ (صلى الله عليه وسلم): (إِنّ الشّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا ، وَلَكِنّهُ إِنْ يُطَعْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمّا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ).

إن وحدة الأمة واعتصامها هو سِرُّ بقائها ودعامة قوتها والسبيل إلى نهضتها، لذا كانت دعوة الإسلام إلى الحفاظ على هذا التماسك ونبذ الخلاف والتفرق والتشرذم صريحة واضحة في قول الله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، وكانت

دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) للأمة بالتزام الوحدة وعدم الفرقة والتنازع ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (يَدُ اللَّهِ مَعَ الجَمَاعَةِ) ، وضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) مثلا للأمة في تماسكها وتآزرها ، فقال: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا).

ألا فالحذرَ الحذرَ مِنَ الخلافِ والنِّزاع ، فإنَّهُ شرٌّ يَجُرُّ إلَى الْفُرْقَةِ والضياع ، والحذرَ الحذرَ مِنَ الانتماءاتِ أَوِ التحزُّبَات لأي جماعة متطرفة أو متشددة أو مستغلة للدين أو متاجرة به ، فإنَّه شَرٌّ يُؤدِّي بالمجتمعاتِ إلَى التفكُّكِ والشتات ، فيجب أن يتآلف الجميع ويتعاونوا لتحقيق استقرار الأوطان ، وهذا ما أمر الله (عزّ وجلّ) به ، فقال سبحانه : {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

وما أجدر البشرية جمعاء أن تقف أمام هذا الهدي النبوي العظيم المتمثل في خطبة الوداع التي جمعت في كل ألفاظها ومعانيها الخير للبشرية جمعاء ، فقد كانت بحق سبقًا في تاريخ البشرية حين أرست قواعد حقوق الإنسان ، ورسمت المبادئ والقيم الأساسية الإنسانية والخلقية ، فلو تدبَّرها الناس وعملوا بما فيها ، لكانت سببًا في إسعادهم في الدنيا والآخِرة.

فاللهم وفقنا لما تحب وترضى ، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.